المحاضرة السابعة: نتائج السياسة الاستعمارية في الدول المغاربية

1-انعكاسات و آثار السياسة الاستعمارية على البلدان المغاربية

لقد تركت السياسة الاستعمارية التي انتهجتها الدول الأوروبية في البلدان المغاربية آثارا عميقة، وجروحا لم تندمل بسهولة سنحاول تلخيصها في النقاط التالية:

-زوال الدولة الجزائرية، وتحول الجزائر إلى قطعة فرنسية. ورغم إبقاء المستعمِر على الأنظمة القديمة التي كانت سائدة في تونس (نظام البايات العثماني)، والمغرب (نظام السلاطين)، وفي ليبيا (حكم الأسرة القرمانلية)، إلى أن حكم هؤلاء كان صوريا شرفيا فقط، إذ كانت السلطة الفعلية بيد ممثل الدولة المستعمِرة، ولم يكن دورهم يتعدى المصادقة والختم على القرارات والمراسيم التي كانت تصدرها السلطات الاستعمارية من أجل إضفاء الشرعية والمصداقية عليها ليس إلا.

-تشتيت القبائل، وتفكيك النظام القبلي الذي كان ركيزة المجتمعات المغاربية، وعماد نظامها خلال العهد السابق للاحتلال.

-تفكيك البنية الاجتماعية لهذه البلدان، وذلك لزرع مجتمع غريب، ودخيل في عاداته وأخلاقه ودينه عن المجتمع المغاربي.

-انتشار الجهل والأمية في وسط السكان، نتيجة لسياسة التجهيل الفرنسي، حيث كان التعليم موجها لخدمة أبناء المستوطنين. بعدما كانت نسب المتعلمين أعلى منها في البلاد الأوروبية حسبما اعترف به بعض الكتاب الفرنسيين.

-محاربة الدين الإسلامي بكل الوسائل، والتضييق على رجاله، والقضاء على الجهاز القضائي في هذه البلدان، واستبداله بالقضاء الأوروبي (الفرنسي، الإسباني في المغرب، والإيطالي في ليبيا)، وما نجم عنه من اختلالات في القضاء، وفي ميزان العدل.

-انتشار ظاهرة الهجرة نحو الخارج، لا سيما من الجزائر إلى تونس وإلى بلاد الشام بسبب سياسة المصادرة، والضرائب الثقيلة التي ترتب عنها تفشي الفقر والمجاعة، ثم في اتجاه فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى (من الجزائر وتونس والمغرب) للعمل في المصانع والموانئ والمزارع وغيرها. وقد لعب هؤلاء المهاجرون دورا فعالا في تبلور الحس الوطني القومي والتحرري لاحقا (نجم شمال إفريقيا نموذجا).

-التخلف واختلال النمو الاقتصادي. لقد أدت السياسة الاستعمارية إلى تفشي مظاهر البؤس والشقاء، وزادت من التخلف الحضاري الذي ينجم عنه آفات اجتماعية كالثالوث الأسود (الجهل والفقر والمرض)، مما حول حياة السكان إلى جحيم لا يطاق، في حين كان المعمرون ينعمون بخيرات هذه البلدان، ويتمتعون بها ويبعثون بالفائض إلى بني جلدتهم في أوروبا، في سياسة دنيئة منافية للقيم الإنسانية، وللأخلاق والأعراف والتقاليد.

-إثقال كاهل السكان بشتى أنواع الضرائب، أدى بدوره إلى زيادة البؤس في وسط السكان، وقد زادت الأوبئة والكوارث الطبيعية من هموم السكان، دون أن تقدم السلطات الفرنسية أية مساعدة، بل أنها تنصلت من المساعدات التي قدما الباشاغا محمد المقراني للفلاحين في منطقته عقب المجاعة الرهيبة التي عرفتها الجزائر سنوات 1865-1866-1867-1868-1869، حيث بلغ بالسكان الأمر إلى أكل لحوم البشر.

قاست المجتمعات المغاربية من الأمراض والأوبئة الفتاكة كالتيفوس والكوليرا والتيفويد، والجذري والجذام وغيرها، فكانت نسبة الوفيات مرتفعة في ظل غياب المرافق الصحية(المستوصفات والأطباء والصيدليات)، وسبل العلاج والوقاية، والجهل بالتدابير الصحية، وانعدام وغياب المنظفات ومواد التعقيم. بالإضافة إلى سوء التغذية والإيواء وانعدام الشروط الصحية في الإيواء وغيرها من العوامل التي كانت تزيد الوضع تفاقما.

سياسة التنصير: استهدف الاستعمار الأوروبي دين الشعوب المغاربية، حيث عمل على نشر الدين المسيحي على حساب إقصاء الديانة الإسلامية الراسخة في المجتمع منذ الفتح الإسلامي، والاستهانة والسخرية من هذه الديانة، والتهكم من العادات والتقاليد وتسفيهها، دون مراعاة لشعور السكان، ولا لعواطفهم الدينية التي كفلتها الاتفاقيات والمعاهدات المبرمة من قبل (وثيقة استسلام الداي حسين ومعاهدة الحماية في كل من تونس المغرب مثلا).

التجهيل:أدرك المستعمر أن العلم خطرا على حاضره ومستقبله في هذه البلدان، ولذلك راح يحارب التعليم الأهلي، وينشر التعليم الفرنسي، لتكريس وترسيخ ثقافته الغربية الدخيلة على هذه المجتمعات.

فحارب اللغة العربية من خلال التضييق على مؤسساتها ورجالها، وتشجيع اللغة الدارجة، والعمل على انتشارها في المؤسسات التعليمية، بهدف القضاء التدريجي على اللغة الفصحى، فحشد لها ترسانة من الإجراءات التعسفية والقوانين القاسية ليتخلص منها ومن مؤسساتها، حيث قال الشيخ الفضيل الورثيلاني بهذا الصدد "بأن فتح مدرسة لتعليم اللغة العربية في الجزائر كان ولا يزال في نظر الفرنسيين أخطر من فتح مصنع لإنتاج الأسلحة والذخائر استعدادا لثورة، وأخطر من فتح مَحششة يُدار فيها الأفيون والكوكايين وبقية السموم، فقد شهدت المحاكم الفرنسية في الجزائر مناظر مخجلة يُساق فيها معلم العربية في موكب اللصوص والقتلة والمجرمين، لمحاكمتهم على صعيد واحد".

وفي مقابل ذلك شجع الاستعمار الطُرقية التي ساهمت في نشر الجهل والخرافة والأباطيل التي لا تمت لتعاليم الدين الإسلامي بصلة.

2-ردود الفعل الوطنية

جابه الجزائريون الاحتلال الفرنسي منذ الوهلة الأولى بالمقاومة السياسية التي قادها حمدان خوجة وأحمد بوضربة. وبالمقاومة العسكرية التي كانت عنيفة بقيادة كل من باي قسنطينة الحاج أحمد في بايلك الشرق، والأمير عبد القادر في بايلك الغرب، ثم اندلاع المقاومات والثورات والانتفاضات الشعبية في شرق البلاد وشمالها وغربها وجنوبها، حيث كلما أُخمدت مقاومة هنا، انطلقت أخرى هناك.

وفيما يتعلق بالمقاومة الفكرية والثقافية فقد تصدى لها العلماء والشيوخ الدينيين لا سيما الزيتونيين، وفيما بعد خريجو المدرسة الكولونيالية المتشبعين بقيم الحضارة الإسلامية والعربية (عرفت هذه المقاومة في جميع البلدان المغاربية)، وكان لها صدى كبيرا، وحققت نتائج ملموسة في الميدان، حيث أفشلت المشاريع الاستعمارية، لا سيما ما تعلق بالقضاء على الهوية المغاربية.

ولا شك أن الدور الذي لعبته الزوايا وبعض الطرق الصوفية في ميدان حفظ الدين الإسلامي، واللغة العربية، هو دور لا يمكن الاستهانة به، حيث كانت هذه الزوايا والطرق الصوفية الدرع الواقي للدين واللغة، وهذا ما جعل الكاردينال الفرنسي لافيجري يصرح أنه طالما شعوب المغرب العربي متمسكة بالإسلام واللغة العربية، فإن أي مشروع يستهدف إدماجهم محكوم عليه بالفشل، ورأى أنه لابد من تنصيرهم، وجعل لسانهم فرنسي من أجل تحقيق اندماجهم.

وتجدر الإشارة إلى أن المستعمِر لم يترك أي ميدان أو مجال من المجالات لم يستثمر فيه خطابه الاستعماري، فعلاوة على استغلاله التاريخ والجغرافيا والدين واللغة والعادات والتقاليد، والأعراف، استخدم الجمعيات الدينية الخيرية التي كانت تتوغل في أوساط السكان، تحت ذريعة تقديم المساعدات والإعانات الخيرية، والخدمات الاجتماعية، لا سيما أثناء الكوارث الطبيعية والأزمات، بل أن البلديات كانت لديها مصلحة خاصة بتقديم الإعانات والصدقات للفقراء والبائسين والمساكين، لكي تمن عليهم، وتبين لهم أن فرنسا حنون وعطوف ورحيمة بسكانها.

يقول الهادي بكوش في هذا الصدد "أن الرسالة التمديينية التي ادعت فرنسا أنها استعمرتنا لنشرها كذب وبهتان في مستوى النيات، وتجهيل وتفقير في مستوى النتائج. إنها مغالطة وتضليل، وهي مأساة إنسانية، وجريمة بالنسبة لمرتكبيها، لأن الاستعمار في الحقيقة احتلال بالقوة، وابتزاز بالعنف. وهو ظلم وعدوان تسلط علينا 132 سنة في الجزائر، و75 عاما في تونس، و44 عاما في المغرب وهكذا. "

"غلبنا، وحُكم فينا، وجُردنا من بلادنا، وأُلحقنا بفرنسا، تفككت مجتمعاتنا، وشُوهت هويتنا، وعُوملنا باحتقار وجبروت في عقر دارنا، في أرضنا وأرض أجدادنا وكأننا غرباء، وسكان من درجة ثانية، والمستعمرون هم الأسياد الأعلون، وكان الأمر في الجزائر أدهى وأمر، إذ كاد شعبها يفقد لغته ودينه، لولا إرادته القوية في الحياة."

"افتكوا أراضينا واستحلوا أحباسنا، وأقَرّوا فيها فرنسيين، حشروا فيها حثالة من المساجين والمجرمين والبطالين، وقالوا لهم هذه بلادكم، هي فرنسا الكبرى اسكنوها آمنين، فهي لكم إلى الأبد، وجعلوا من بلادنا مستعمرات استيطان."حكمونا بالحديد والنار، بالرعب والتخويف، بالإبعاد والتشريد والسجن، بالقتل والتعذيب، بالإهانة والتذليل. نهبونا، سلبونا، فقرونا وجوّعونا، وجهّلونا، طمسوا هُويتنا، وكلما احتج الأهالي اشتد العنف، وزادت القساوة، وتعددت عمليات الإبادة. من ذلك أنهم حشروا الفارين في الكهوف والمشاتي ودفنوهم أحياء. وكانوا يغربون البعض منهم إلى الجزر النائية كيان وكاليدونيا الجديدة، حيث يموتون مرضا، وجوعا، وعطشا."

"بالرغم من ذلك لم يستسلم الشعب، ولم تتوقف الاحتجاجات، والتظاهرات، ولم تضعف المقاومة. فشُعوبنا لم تقبل الاحتلال، وخاضت حروبا ضده منذ دخوله، وسجلت ملاحم خالدة، ومن ينسى بطولات الأمير عبد القادر، والحاج أحمد باي، وانتصارات عبد الكريم الخطابي، وجرأة وصمود رجال أمثال علي بن خليفة، ومحمد بن صالح الدغباجي، وخليفة بن عسكر. تراجعت المقاومة فيما بعد لعدم توازن القوى، ولافتقارنا إلى الأسلحة العصرية، ولغياب سند دولي، ولانهيار السلطنة العثمانية، ولتخلفنا السياسي والاقتصادي. ثم عاد لنا وعينا، واستيقظنا وتجددت المعارك في كل من تونس والمغرب (1952) بعد أن أغلق الاستعمار باب الحوار، ثم اندلعت في الجزائر الثورة التحريرية سنة 1954،" حيث خاضت شعوبنا معارك التحرير التي كللت بالاستقلال.

لقد مرت جميع شعوب البلدان المغاربية بتجربة المقاومة المسلحة ضد المحتل في البداية، ثم انتقلت إلى النضال السياسي السلمي لكنها سرعان ما عادت مرة أخرى للجهاد كسبيل وحيد لانتزاع السيادة الوطنية.

خاتمة:

في الختام يمكننا أن نخلص إلى القول أن هناك قواسم مشتركة بين السياسات الاستعمارية المتبعة في بلدان المغرب العربي، على اختلاف جنس الاستعمار، حيث أن الظاهرة الاستعمارية واحدة، وكانت الدول الاستعمارية تستفيد من تجارب بعضها البعض، وتقتبس من بعضها البعض بغرض إنجاح العمل الاستعماري، ويمكن تلخيص هذه السياسات في العناصر التالية:

-القضاء على الأسر المحلية الحاكمة وتدجينها.

-إنشاء المستوطنات الأوروبية.

-تدعيم القوة العسكرية.

-البحث عن حلفاء محليين وتشكيل القوة الثالثة أو الطابور الثالث.

-إنشاء الشركات الفلاحية.

-تأسيس قاعدة صناعية خدمة للمستوطنين والميتروبول على حساب قدرات الأهالي.

مثال:حصلت الشركة السويسريةla société genevoise على مساحة 20000 هكتار في سهول سطيف.

-ضرب البنية الاجتماعية.

-اعتمدت فرنسا في الجزائر كما في المغرب الأقصى على سياسة خطيرة سيكون لها أبعاد وانعكاسات في مستقبل البلدين تمثلت في تشجيع السياسة البربرية التي كانت تقوم على التمييز العرقي بين العرب والبربر(توجد في الجزائر على سبيل المثال عدة مجموعات إثنية موزعة عبر التراب الوطني تتمثل في القبائل والميزابيين والشنويين والشلوح والشاوية والطوارق ولكل مجموعة لغتها الخاصة بها) وقد ارتكزت هذه السياسة على أن البربر إسلامهم سطحيا، وأنهم يعتمدون على عاداتهم

وتقاليدهم أكثر من اعتمادهم على تعاليم الدين الإسلامي، وأن البربر يسهل تنصيرهم وتمسيحهم، وذلك من خلال السعي إلى إبعادهم عن العرب وعن العربية والإسلام قدر الإمكان، ولذلك عمل الاستعمار على التركيز في سياسته التنصيرية على منطقة القبائل.

وفي الأخير يمكن القول أنه على الرغم من مرور أكثر من 60 سنة على استقلال البلدان المغاربية، إلى أنها لا تزال تتخبط في مشاكل لا حصر لها في التنمية الشاملة، والنهوض بالشعوب وتحقيق النهضة والتطور الذي كان يحلم به المجاهدون والشهداء، حيث أن الاستعمار قبل خروجه مهزوما من هذه البلدان كان قد زرع بذور التفرقة بين رفقاء الأمس في النضال، وخير مثال على ما نقول مصير الاتحاد المغاربي الذي لا يزال رهينة الاختلافات والصراعات السياسية بين حكوماته، وهو المخرج الوحيد للأزمات التي يمر بها المغرب العربي، ولمواجهة التكتلات الدولية التي لا يُرحم فيها الضعيف.